بسم الله الرحمن الرحيم

حُسْنُ التَّعامُلِ مَعَ مُخْتَلَفِ الطَّبائع

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَقَدَّرَ فَهَدَى، سُبْحَانَهَ فَطَرَ النَّاسَ عَلَى طَبَائِعَ مُخْتَلِفَةٍ وَأَمْزِجَةٍ مُتَعَدِّدَةٍ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ عَلَى اخْتِلافِ طَبَائِعِهِمْ أَنْ يَتَعَارَفُوا، وَيَتَعَاوَنُوا وَيَتَرَاحَمُوا، وَأَشْهَدُ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللهُ بِالشَّرِيعَةِ السَّمْحَةِ وَالطَّرِيقَةِ القَوِيمَةِ، فَأَرْشَدَ المُؤْمِنِينَ إِلَى مَا يُحَبِّبُ بَعْضَهُمْ إِلَى بَعْضٍ مِنْ فُنُونِ السُّــلُوكِ وَالآدَابِ، وَمَرَاشِدِ الخَيْرِ وَالصَّوَابِ، ﷺ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الغُرِّ المَيَامِينِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَيَا عِبَادَ اللهِ:

فِي رُقْعَةِ الحَيَاةِ الوَاسِعَةِ تُصَادِفُكَ أَجْنَاسٌ وَأَصْنَافٌ مِنَ النَّاسِ، يَحْمِلُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ طَبِيعَةً تَخْتَلِفُ عَنِ الآخَرِ، وَصِفَاتٍ تَخْتَلِفُ عَنْ بَعْضِهَا، تَتَأَثَّرُ سَلْبًا وَإِيْجَابًا بِالعَوَامِلِ الوِرَاثِيَّةِ وَالمُنَاخَاتِ الفِكْرِيَّةِ وَالبِيئِيَّةِ، قَلَّمَا تَتَوافَرُ فِي اثْنَيْنِ يَلْتَقِيَانِ عَلَى مَصلَحَةٍ وَاحِدَةٍ، وَلَوْ حَاسَبَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَى طَبَائِعِهِمْ مَا التَقَى اثْنَانِ عَلَى بِنَاءِ الحَيَاةِ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَغْلِبُ عَلَى طَبْعِهِ الغَضَبُ، وَلَوْ حَاسَبْــتَهُ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ لانْقَطَعَتْ حَبَائِلُ الاتِّصَالِ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، وَلَتَحَوَّلَتِ الحَيَاةُ بَيْنَكُمَا إِلَى مَعَارِكَ مُتَلاحِقَةٍ لا يَنْجُو مِنْهَا أَحَدٌ، وَلَرُبَّمَا تَكُونُ هَذِهِ الشَّخْصِيَّةُ الغَضُوبُ هِيَ الزَّوْجَةَ، أَوْ تَكُونُ هِيَ الزَّوْجَ، وَلَكُمْ أَنْ تَتَصَوَّرُوا كَيْفَ تَكُونُ الحَيَاةُ بَيْنَ زَوْجَيْنِ لا يَتَفَهَّمُ أَحَدُهُمَا طَبِيعَةَ الآخَرِ. وَفِي الحَيَاةِ أَيْضًا تُصَادِفُكَ شَخْصِيَّاتٌ حَسَّاسَةٌ وَمَا أَكْثَرَهَا، تَجِدُهَا كَثِيرَةَ الحُزْنِ شَدِيدَةَ التَّحَسُّسِ حَتَّى مِنَ الأُمُورِ الَّتِي قَدْ لا تَحْسُبُ لَهَا شَيْئًا، وَلَوِ اتَّخَذْتَ مَوَاقِفَ غَضَبٍ مِنْ كُلِّ هَؤُلاءِ لَمَشَيْتَ فِي الحَيَاةِ وَحْدَكَ، وَاستَوْحَشْتَ مِنَ الدُّنْيَا. إِنَّ هَذِهِ المُفَارَقَاتِ فِي حَيَاةِ النَّاسِ أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ، يَنْبَغِي أَلاَّ يُقْلِقَكَ كَثِيرًا بِقَدْرِ مَا يَدفَعُكَ إِلَى التِمَاسِ طَرَائِقَ مُتَعَدِّدَةٍ فِي التَّعَامُلِ مَعَهَا، وَقَدْ وَجَّهَنَا دِينُنَا الحَنِيفُ

إِلَى ضَرُورَةِ الالتِفَافِ حَولَ مَنْهَجٍ مُوَحَّدٍ فِي تَعَامُلِ النَّاسِ مَعَ بَعْضِهِمْ يَقُومُ عَلَى أَسَاسِ المَحَبَّةِ وَالتَّعَاوُنِ، وَالتَّآزُرِ وَالتَّآخِي، وَيَتَجَاوَزُ الهَنَاتِ الصَّغِيرَةَ وَالأَخْطَاءَ القَلِيلَةَ، مَنْهَجٍ يَعُدُّ المُؤْمِنِينَ إِخْوَةً فِي الدِّينِ، وَالنَّاسَ جَمِيعًا إِخْوَةً فِي الإِنْسَانِيَّةِ، يَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(١)، وَقَالَ جَلَّ وَعَلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(٢)، وَلَمَّا كَانَ الإِنْسَانُ مِنْ طَبِيعَتِهِ الخَطَأُ، وَالنَّاسُ يَتَفَاوَتُونَ فِيمَا بَينَهُمْ فِي المَدَارِكِ وَالفِطْنَةِ وَالحِكْمَةِ وَالذَّكَاءِ؛ وَجَبَ مُرَاعَاةُ الطَّبَائِعِ المُخْتَلِفَةِ وَالاعتِمَادُ عَلَى مَنْهَجِ الإِسْلامِ الَّذِي يَستَطِيعُ المُسلِمُ مِنْ خِلالِهِ التَّعَامُلَ مَعَ كُلِّ هَذِهِ المُفَارَقَاتِ، حَتَّى لَوْ لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ دِرَايَةٌ بِطَبِيعَةِ أَخِيهِ.

أَيُّهَا المُسلِمُونَ:

إِنَّ مَعْرِفَةَ طَبِيعَةِ المَرْءِ تُسَاعِدُ عَلَى اخْتِيَارِ الطَّرِيقَةِ المُنَاسِبَةِ فِي التَّعَامُلِ مَعَهُ، وَلَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْكَمَ النَّاسِ فِي التَّعَامُلِ مَعَ طَبَائِعِ النَّاسِ المُخْتَلِفَةِ، وَأَقْدَرَهُمْ عَلَى استِعْمَالِ مَنْهَجِ الإِسْلامِ فِي حَرَكَةِ العَلاقَةِ بَيْنَهُمْ، وَنَمَاذِجُ تَعَامُلِهِ – عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ – مَعَ هَذِهِ الطَّبَائِعِ كَثِيرَةٌ جِدًّا حَفَلَتْ بِهَا السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ العَطِرَةُ، مِنْ ذَلِكَ مَا حَدَثَ فِي يَوْمِ الحُدَيْبِيَةِ عِنْدَمَا بَعَثَتْ قُرَيْشٌ عَدَدًا مِنَ المُفَاوِضِينَ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، فَكَانَ كُلَّمَا جَاءَ أَحَدُهُمْ فَرَآهُ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ بَعِيدٍ أَخْبَرَ أَصْحَابَهُ بِطَبِيعَتِهِ، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَتَعَامَلُوا مَعَهُ بِمَا يُنَاسِبُ تِلْكَ الطَّبِيعَةَ أَوْ تِلْكَ الصِّفَةَ، فَجَاءَهُ رَجُلٌ مِنْ كِنَانَةَ فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ فِي الحُدَيبِيَةِ قَالَ: هَذَا فُلانٌ وَهُوَ مِنْ قَوْمٍ يُعَظِّمُونَ البُدْنَ فَابْعَثُوهَا لَهُ – أَيْ أَرْسِلُوا قُطْعَانَ الهَدْيِ أَمَامَكُمْ لِيَرَاهَا–، فَبُعِثَتْ لَهُ وَاستَقْبَلَهُ النَّاسُ يُلَبُّونَ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَالَ الرَّجُلُ: سُبْحَانَ اللهِ، مَا يَنْبَغِي لِهَؤُلاءِ أَنْ يُصَدُّوا عَنِ البَيْتِ، ثُمَّ جَاءَ سُهَيلُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : قَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ – أَيْ سَهَّلَ اللهُ لَكُمْ مُهِمَّتَكُمْ بِهَذَا الرَّجُلِ –، وَهَكَذَا كَانَ يُرَاعِي النَّبِيُّ ﷺ نُفُوسَ النَّاسِ وَمَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ مِنْ طَبْعٍ، فَمَنْ كَانَ يُحِبُّ الفَخْرَ أَعْطَاهُ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ المَكَانَةِ مَا تَحفَظُ لَهُ

(١) سورة الحجرات / ١٠.

(٢) سورة الحجرات / ١٣.

طَبْعَهُ فِي الحُدُودِ الطَّبِيعِيَّةِ، كَمَا فَعَلَ مَعَ أَبِي سُفْيَانَ عِنْدَمَا قِيلَ لَهُ: إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ يُحِبُّ الفَخْرَ فَاجْعَلْ لَهُ شَيْئًا، فَقَالَ: ((نَعَمْ، مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ))، وَمَوَاقِفُ النَّبِيِّ ﷺ مَعَ أَصْحَابِهِ قَائِمَةٌ عَلَى مُرَاعَاةِ هَذِهِ الجَوَانِبِ النَّفْسِيَّةِ وَالطَّبَائِعِ البَشَرِيَّةِ، يَتَعَلَّمُ مِنْهَا أَصْحَابُهُ قَوَاعِدَ السُّــلُوكِ، وَطَرَائِقَ التَّعَامُلِ مَعَ النَّاسِ.

أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ:

لَقَدْ حَدَّدَ الإِسْلامُ مَجْمُوعَةً مِنَ الطُّرُقِ وَالأَسَالِيبِ فِي جَذْبِ قُلُوبِ النَّاسِ وَكَسْبِ مَحَبَّــتِهِمْ، عَلَى اخْتِلافِ طَبَائِعِهِمْ وَأَمْزِجَتِهِمْ، وَسَوفَ نَذْكُرُ هُنَا بَعْضًا مِنْهَا، وَأَوَّلُ هَذِهِ الطُّرُقِ – أَخِي المُسلِمَ – التَّبَسُّمُ؛ فَالتَّبَسُّمُ خُلُقٌ يَنْبَغِي أَلاَّ يُفَارِقَكَ أَبَدًا، وَقَدْ جَعَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ صَدَقَةً تَكْسِبُ بِهَا الأَجْرَ الجَزِيلَ، فَقَالَ –عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ–: ((تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ))، وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ كَثِيرَ التَّبَسُّمِ حَتَّى قَالَ عَنْهُ جَرِيرٌ الْبَجَلِيُّ: ((مَا رَآنِي النَّبِيُّ ﷺ إِلاَّ ابْتَسَمَ)). إِنَّ الابتِسَامَةَ رِسَالَةُ المَحَبَّةِ بَيْنَ النَّاسِ، وَمِفْتَاحُ القُلُوبِ المُغْلَقَةِ، فَإِذَا لَقِيتَ أَخَاكَ فِي كُلِّ مَرَّةٍ بِالابتِسَامَةِ فَذَلِكَ يَعنِي أَنَّكَ تُعَبِّرُ لَهُ عَمَّا فِي قَلْبِكَ مِنَ المَحَبَّةِ، وَالطَّرِيقَةُ الثَّانِيَةُ هِيَ دَفْعُ الكَلِمَةِ السَّيِّــئَةِ بِالكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ. فَرُبَّ كَلِمَةِ شَرٍّ تَمُوتُ إِذَا أَهْمَلَهَا النَّاسُ وَلَمْ يَهتَمُّوا بِهَا، وَرُبَّ كَلِمَةِ شَرٍّ تَنَامَتْ وَزَادَ الاهتِمَامُ بِهَا حَتَّى أَحْرَقَتْ حَاضِرَ النَّاسِ وَمُستَقْبَلَهُمْ؛ لأَنَّ النَّاسَ أَوقَدُوا بِهَا نِيرَانَ القُلُوبِ، ذَلِكَ لأَنَّ الكَلِمَةَ السَّيِّــئَةَ تَصْدُرُ مَرِيضَةً سَقِيمَةً لا تَقْوَى عَلَى اخْتِرَاقِ القُلُوبِ إِلاَّ إِذَا فُتِحَ لَهَا البَابُ، وَسُمِحَ لَهَا بِالدُّخُولِ، وَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى أَنْ تُوَاجَهَ هَذِهِ الكَلِمَاتُ السَّيِّــئَةُ وَالتَّصَرُّفَاتُ الخَاطِئَةُ بِالحُسنَى، وَأَنْ تُرَدَّ بِاللُّطْفِ وَالتَّعَقُّلِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾(١)، وَالكَلِمَاتُ السَّيِّــئَةُ سُرْعَانَ مَا تَتَحَوَّلُ إِلَى عَكْسِهَا عِنْدَمَا تُدفَعُ بِالحُسنَى؛ لِتَعُودَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَخِيكَ مَوَدَّةٌ مَا عَرَفْتَ مِثْلَهَا مِنْ قَبلُ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴾(٢)، إِنَّ الكَلِمَةَ السَّيِّــئَةَ قَد تَبْدُو أَوَّلَ الأَمْرِ

(١) سورة المؤمنون / ٩٦ .

(٢) سورة فصلت / ٣٤.

صَغِيرَةً؛ فَيَنْـفُخُ الشَّيْطَانُ فِي مَعنَاهَا حَتَّى تَتَعَاظَمَ فِي قَلْبِ مَنْ يَسْمَعُهَا، فَتَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا مَوَاقِفُ خَطِيرَةٌ وَتَصَرُّفَاتٌ مُتَهَوِّرَةٌ، وَقَدْ أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عِبَادَهُ أَنْ يُجَنِّبُوا أَنْفُسَهُمْ كَلِمَاتِ السَّوءِ، وَأَنْ يَتَعَوَّدُوا القَولَ الحَسَنَ؛ قَطْعًا لِدَابِرِ الشَّيْطَانِ وَمَكَايِدِهِ، يَقُولُ سُبْحَانَهُ:﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾(١)، وَمِنْ هَذَا المُنْطَلَقِ حَذَّرَ يَعقُوبُ ابنَهُ يُوسُفَ – عَلَيْهِمَا السَّلامُ– مِنْ هَذَا الكَيْدِ الشَّيْطَانِيِّ فِي إِفْسَادِ القُلُوبِ، وَإِشْعَالِ نِيرَانِ العَدَاوَةِ بَيْنَ الإِخْوَةِ، فَقَالَ: ﴿يَـٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾(٢)، وَاعلَمْ – أَخِي المُسلِمَ – أَنَّ الكَلِمَةَ السَّيِّـئَةَ الَّتِي تَصْدُرُ مِنْ أَخِيكَ لَيْسَ لَهَا جُذُورٌ فِي الأَرْضِ فَلا تَقْوَى عَلَى البَقَاءِ أَبَدًا، فَمَا عَلَيْكَ إِلاَّ أَنْ تَدفَعَهَا بِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ لِتَنْبُتَ بِهَا شَجَرَةُ المَحَبَّةِ، وَتَقْوَى فِيهَا أَغْصَانُ الأُخُوَّةِ، وَتَنْتَعِشَ تَحْتَ ظِلالِهَا قُلُوبُ العِبَادِ، يَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ، تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ، وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾(٣).

عِبَادَ اللهِ:

مِنْ طُرُقِ التَّعَامُلِ الصَّحِيحِ مَعَ النَّاسِ بِمُخْتَلَفِ طَبَائِعِهِمْ تَجَنُّبُ جَرْحِ المَشَاعِرِ وَتَسْجِيلِ الإِهَانَاتِ، حَتَّى لَوْ كَانَ ذَلِكَ فِي مَقَامِ النَّصِيحَةِ، لأَنَّ النَّصِيحَةَ إِذَا كَانَتْ فِي جَمْعٍ مِنَ النَّاسِ قَد تَكُونُ غَيْرَ مَقْبُولَةٍ، لأَنَّهَا تُؤَدِّي إِلَى جَرْحِ المَشَاعِرِ، وَتَحْمِلُ مَعنَى التَّوْبِيخِ بَيْنَ الجَمَاعَةِ، وَلَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَمَا يُعَلِّمُ أَصْحَابَهُ يَقُولُ: ((مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَفْعَلُونَ كَذَا، وَمَا بَالُ أُنَاسٍ يَعْمَلُونَ كَذَا))، فَجَرْحُ المَشَاعِرِ لا يَسْمَحُ بِاستِمْرَارِ التَّوَاصُلِ بَيْنَ النَّاسِ، وَلا

(١) سورة الإسراء / ٥٣ .
(٢) سورة يوسف / ٥ .
(٣) سورة إبراهيم / ٢٤-٢٦.

يُؤَدِّي إِلاَّ إِلَى المَزِيدِ مِنَ الكَرَاهِيَةِ وَالبَغْضَاءِ، ذَلِكَ لأَنَّ مَشَاعِرَ الإِنْسَانِ هِيَ رُوحُهُ الَّتِي يَعِيشُ بِهَا، وَوَجْهُهُ الَّذِي يَلْقَى بِهِ الآخَرِينَ، فَلا يَسْمَحُ لأَيِّ أَحَدٍ أَنْ يَنَالَهُ بِسُوءٍ، وَفِي سِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ نَمَاذِجُ رَائِعَةٌ فِي مُرَاعَاةِ مَشَاعِرِ النَّاسِ وَعَدَمِ إِحْرَاجِهِمْ، مِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ مُعَاوِيَةُ بْنُ الحَكَمِ السُّلَمِيُّ قَالَ: "بَينَمَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللهُ، فَرَمَانِي القَومُ بِأَبْصَارِهِمْ فَقُلْتُ: وَاثُكْلَ أُمَّاهُ، مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيتُهُمْ يُصْمِتُونَنِي سَكَتُّ، فَلَمَّا صَلَّى – عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ – دَعَانِي، فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللهِ مَا كَهَرَنِي – أَيْ مَا نَهَرَنِي– وَلا ضَرَبَنِي وَلا شَتَمَنِي، وَإِنَّمَا قَالَ: ((إِنَّ هَذِهِ الصَّلاةَ لا يَصلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ القُرآنِ)).

فَاتَّقُوا اللهَ –عِبَادَ اللهِ–، وَتَفَهَّمُوا مَشَاعِرَ الآخَرِينَ، وَاتَّخِذُوا مِنْ نَبِيِّكُمْ ﷺ قُدْوَةً فِي شُؤُونِ حَيَاتِكُمْ وَتَعَامُلِكُمْ مَعَ أَجْنَاسِ البَشَرِ، ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[1].

أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ العَظِيمَ لِي وَلَكُمْ، فَاسْتَغْفِرُوهُ يَغْفِرْ لَكُمْ إِنهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ، وَادْعُوهُ يَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنهُ هُوَ البَرُّ الكَرِيمُ.

*** *** ***

الْحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ، أَمَرَ عِبَادَهُ بِالخُلُقِ القَوِيمِ، وَدَعَاهُمْ إِلَى الصِّرَاطِ المُستَقِيمِ، وَأَشْهَدُ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُوْلُهُ، المَبْعُوثُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، ﷺ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَيَا عِبَادَ اللهِ:

إِنَّ طَبِيعَةَ المَرْءِ لَيْسَتْ عُذْرًا فِي ارتِكَابِهِ الخَطَأَ، فَاللهُ تَعَالَى لا يَجْعَلُ فِي امْرِئٍ طَبِيعَةً لا يَقْدِرُ عَلَى تَغْيِيرِهَا ثُمَّ يُحَاسِبُهُ عَلَيْهَا، كَلاَّ فَالطَّبَائِعُ حَالٌ يَستَطِيعُ المَرْءُ تَكْيِيفَهَا وَفْقَ أَمْرِ

(١) سورة الأحزاب / ٢١.

اللهِ تَعَالَى، وبِالطَّرِيقَةِ الَّتِي يَرْضَاهَا سُبْحَانَهُ، يَقُولُ اللهُ جَلَّ فِي عُلاهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(١)، وفِي القُرآنِ الكَرِيمِ أَمثِلَةٌ عَلَى طَبَائِعِ الأَنْبِيَاءِ – عَلَيْهِمُ السَّلامُ–، غَيْرَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ لَمْ يَخْرُجْ فِي طَبِيعَتِهِ عَنِ الحَقِّ، فَمُوسَى – عَلَيْهِ السَّلامُ– يَتَحَدَّثُ القُرآنُ عَنْ مَوقِفِ غَضَبِهِ، وكَيْفَ كَانَ يُوَاجِهُ المُنْحَرِفِينَ بِطَرِيقَةٍ شَدِيدَةٍ حِينَ عَبَدُوا العِجلَ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٢)، وقَدْ كَانَتْ كُلُّهَا مَوَاقِفَ صَحِيحَةً يَفْرِضُهَا المَقَامُ، إِلاَّ أَنَّ طَبِيعَةَ المَرْءِ هِيَ الَّتِي تَخْتَارُ طَرِيقَةَ التَّعَامُلِ، فَهَارُونُ – عَلَيْهِ السَّلامُ– كَانَ تَصَرُّفُهُ مَعَ المَوقِفِ نَفْسِهِ مُخْتَلِفًا، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى، قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾(٣)، وهَكَذَا فَإِنَّ تَوْجِيهَ الطَّبَائِعِ إِلَى الحَقِّ فِي مَقْدُورِ الإِنْسَانِ، مِنْ خِلالِ التِزَامِهِ مَنْهَجَ الأَخْلاقِ فِي الإِسْلامِ، وَاتِّبَاعِهِ هَدْيَ الأَنْبِيَاءِ – عَلَيْهِمُ السَّلامُ –، أَمَّا تَرْكُ الطَّبَائِعِ تَتَحَكَّمُ فِي النَّفْسِ، وَتَقُودُ صَاحِبَهَا إِلَى الخَطَأِ وَارتِكَابِ المُحَرَّمَاتِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ تَصَرُّفٌ غَيْرُ مَقْبُولٍ، وَيَبقَى أَنَّ المُسلِمَ مُطَالَبٌ بِفَهْمِ هَذِهِ الطَّبَائِعِ وَتَقْدِيرِ مَوَاقِفِ أَصْحَابِهَا، مِنْ مُنْطَلَقِ الإِخْلاصِ للهِ، وَالرَّحْمَةِ بِالنَّاسِ، وَالرَّغْبَةِ فِي إِصْلاحِهِمْ وَالتِمَاسِ طَرَائِقِ السَّعَادَةِ لَهُمْ، وَهِيَ المَعَانِي الَّتِي بَيَّنَهَا اللهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ فِي قَولِهِ مُخَاطِبًا لَهُ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾(٤).

---

(١) سورة الرعد / ١١ .

(٢) سورة الأعراف / ١٥٠ .

(٣) سورة طـــه / ٩٠-٩١ .

(٤) سورة آل عمران / ١٥٩.

فَاتَّقُوا اللهَ – عِبَادَ اللهِ –، وَتَعَامَلُوا مَعَ طَبَائِعِ النَّاسِ بِهَذَا السُّلُوكِ الإِيْمَانِيِّ العَظِيمِ، وَاعلَمُوا أَنَّ فَهْمَ الطَّبَائِعِ وَمُرَاعَاةَ المَشَاعِرِ مَنْهَجٌ شَرْعِيٌّ وَمَطْلَبٌ اجتِمَاعِيٌّ، يَحتَاجُ إِلَيْهِ رَبُّ الأُسْرَةِ مَعَ أَهلِ بَيتِهِ وَأَولادِهِ، وَالمَسْؤُولُ مَعَ مُوَظَّفِيهِ وَعُمَّالِهِ، وَالمُعَلِّمُ مَعَ طُلاَّبِهِ، وَكُلُّ فَرْدٍ مِنَّا مَعَ مَنْ يَتَعَامَلُ مَعَهُ فِي حَيَاتِهِ.

هَذَا وَصَلُّوْا وَسَلِّمُوْا عَلَى إِمَامِ الْمُرْسَلِيْنَ، وَقَائِدِ الْغُرِّ الْمُحَجَّلِيْنَ، فَقَدْ أَمَرَكُمُ اللهُ تَعَالَى بِالصَّلاَةِ وَالسَّلاَمِ عَلَيْهِ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ حَيْثُ قَالَ عَزَّ قَائِلاً عَلِيْمًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ (١).

اللَّهُمَّ صَلِّ وسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ وسَلَّمْتَ عَلَى سَيِّدِنا إِبْرَاهِيْمَ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنا إِبْرَاهِيْمَ، وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيْمَ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنا إِبْرَاهِيْمَ، فِي العَالَمِيْنَ إِنَّكَ حَمِيْدٌ مَجِيْدٌ، وَارْضَ اللَّهُمَّ عَنْ خُلَفَائِهِ الرَّاشِدِيْنَ، وَعَنْ أَزْوَاجِهِ أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِيْنَ، وَعَنْ سَائِرِ الصَّحَابَةِ أَجْمَعِيْنَ، وَعَنْ المُؤْمِنِيْنَ وَالمُؤْمِنَاتِ إِلَى يَوْمِ الدِّيْنِ، وَعَنَّا مَعَهُمْ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ.

اللَّهُمَّ اجْعَلْ جَمْعَنَا هَذَا جَمْعًا مَرْحُوْمًا، وَاجْعَلْ تَفَرُّقَنَا مِنْ بَعْدِهِ تَفَرُّقًا مَعْصُوْمًا، وَلا تَدَعْ فِيْنَا وَلا مَعَنَا شَقِيًّا وَلا مَحْرُوْمًا.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى وَالعَفَافَ وَالغِنَى.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ أَنْ تَرْزُقَ كُلاًّ مِنَّا لِسَانًا صَادِقًا ذَاكِرًا، وَقَلْبًا خَاشِعًا مُنِيْبًا، وَعَمَلاً صَالِحًا زَاكِيًا، وَعِلْمًا نَافِعًا رَافِعًا، وَإِيْمَانًا رَاسِخًا ثَابِتًا، وَيَقِيْنًا صَادِقًا خَالِصًا، وَرِزْقًا حَلاَلاً طَيِّبًا وَاسِعًا، يَا ذَا الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ.

اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلاَمَ وَالْمُسْلِمِيْنَ، وَوَحِّدِ اللَّهُمَّ صُفُوْفَهُمْ، وَأَجْمِعْ كَلِمَتَهُمْ عَلَى الحَقِّ، وَاكْسِرْ شَوْكَةَ الظَّالِمِينَ، وَاكْتُبِ السَّلاَمَ وَالأَمْنَ لِعِبادِكَ أَجْمَعِينَ.

---

(١) سورة الأحزاب / ٥٦ .

اللَّهُمَّ رَبَّنَا احْفَظْ أَوْطَاننَا وَأَعِزَّ سُلْطَاننَا وَأَيِّدْهُ بِالْحَقِّ وَأَيِّدْ بِهِ الْحَقَّ يَا رَبَّ العَالَمِيْنَ.

اللَّهُمَّ رَبَّنَا اسْقِنَا مِنْ فَيْضِكَ الْمِدْرَارِ، وَاجْعَلْنَا مِنَ الذَّاكِرِيْنَ لَكَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، الْمُسْتَغْفِرِيْنَ لَكَ بِالْعَشِيِّ وَالأَسْحَارِ.

اللَّهُمَّ أَنْزِلْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِ السَّمَاءِ وَأَخْرِجْ لَنَا مِنْ خَيْرَاتِ الأَرْضِ، وَبَارِكْ لَنَا فِي ثِمَارِنَا وَزُرُوْعِنَا وكُلِّ أَرزَاقِنَا يَا ذَا الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ.

رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ.

رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوْبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا، وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً، إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ.

رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُوْنَنَّ مِنَ الخَاسِرِيْنَ.

اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَالْمُسْلِمِيْنَ وَالْمُسْلِمَاتِ، الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالأَمْوَاتِ، إِنَّكَ سَمِيْعٌ قَرِيْبٌ مُجِيْبُ الدُّعَاءِ.

عِبَادَ اللهِ :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾.